الأنا النّاقدة وحركيّة المشهد النّقديّ

أوراغ مريم
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص :

تشير معظم الدراسات النقدية إلى أن السبب وراء صخب المناهج في الساحة النقدية يعزى إلى قصور هذه المناهج و عجزها عن استيعاب النص الأدبي .

إن الهدف من هذه الدراسة هو الدفاع عن كون ذات الناقد بما هي شاعرة عاملا رئيسا في الحركة الثورية لمناهج النقد الأدبي ، فخلف كل ناقد مقتدر هناك دائما شاعر يفرض تأثيره على كل ممارسة نقدية ، و يتحكم في ذوقه و يوجه أحكامه ، و لهذا يستحيل على أي ناقد الاعتماد على منهج واحد ، حتى إن لغته النقدية و بفرض تلك الذات الشاعرة لا تلتزم الموضوعية المرجوة بل هي أحيانا عاجزة عن التعبير عن أحكامه النقدية.

الكلمات المفتاحية : الناقد ، الشاعر ، الذات ، الأنا ، الانفعال ، التحول، الثبات ، المنهج

The summary :

Most of the critical studies indicate that the reason behind methods' chaos that is witnessed in the critical scene is due to the lack of curricula and its failure in grasping the literary text.

The aim of this study is to defend the fact that the critic is an important factor in the revolutionary movement of the critical curriculum. Within every competent critic, there is always a poet who strengthens his influence in every critical practice, manipulate his taste and even directs his judgments. Thus, it is impossible for a critic to strictly adhere to a single approach, and even his critical language fails to comply with objectivity on the one hand and to express its judgments on the other.

كثر اللّغط حول الصّخب المنهجيّ في الخطاب النّقديّ العربيّ المعاصر ، كثرةً تربك كلّ محاولةٍ للإحاطة بالموضوع ، إذ يجد الباحث نفسه أمام جدليّة رفضٍ و قبولٍ ما يكاد يسلّم بطرف فيها حتىّ تخالجه قناعة أنّ الطّرح الآخر جدير أن يناقش بل و يحترم أيضا ، لاسيّما حين تكون الحجج المدفوعة من طرفه محترمة و لا تقبل الردّ ، لأنّ واقع الممارسة النّقديّة يثبتها .

و بغضّ النّظر عن كون هذا التّعدد المنهجيّ حالة صحيّةً و مجديةً بل و فعالةً تلك الفعاليةَ الّتي تدفع بالممارسة النّقديّة قدما نحو الأمام و ترفع عنها الجمود الّذي ليس بأيّ شكل سمة الظّاهرة الإبداعيّة الأدبيّة ... أو كونه حالة مرضيّة تكشف عقم المناهج النّقديّة و عجزها عن استيعاب النّصّ الأدبي ... بغضّ النّظر عن هذين الطّرحين اللّذين قيل فيهما و عنهما الكثير ، يجدر البحث في قضيّة العلاقات الّتي تحكم النّقد ليس بهدف الدفاع عنها أو إدحاضها ، إنّما للكشف عن طبيعتها الّتي غالبا ما تكون السّبب الأهمّ في رسم ملامح المشهد النقديّ على ما هي عليه ، إذ« يعاني النّقد و طوال عصور جملةً من المعضلات ، أهمّها ثلاثٌ : معضلة الثنائيّات ، و معضلة الأزمات ، و معضلة المناهج»[1] ، و لئن كانت الأولى و الأخيرة قد استهلكتها الدراسةَ و البحثَ ممّا يجعل القارئ يفهم طبيعة المعضلة و أثرها على النّقد ، فإن الثانية منها (معضلة الأزمات) لا تزال محتاجةً للنّبش في جذورها و طرح خلفياتها و تقليبها على وجوه عدّة ، ذلك أنّها معضلة ولاّدة ما انفكّت تضع أمامنا أزمات متجدّدة نسمع كل حين عن إحداها .

إنّ أزمة النّقد – إنْ حقَّ لنا أن نسميّها أزمة بل و إن كانت هي فعلا كذلك – الأكثر إلحاحا هي أزمة العلاقات بين ذوات حاضرة و مهمة في أيّ فكر نقديّ و في أيّة عمليّة نقديّة : علاقة النّاقد بالشّاعر – علاقة النّاقد بالنّتاج

الشعري – علاقة النّاقد بالقارئ – علاقة النّاقد بالواقع و الحياة – علاقة النّاقد بنصّه النّقديّ ،« كـلُّ هـذه العلاقـات أزماتٌ لسبب بسيط و هو أنّها علاقات غير صحيّة »[2]، و على ما يبدو فإنّ العامل المشترك في كل هذه العلاقات هـو النّاقد الّذي يربط أطراف العمليّة النّقديّة ربطا تستقيم معه أو تتوتر، « إنّ العملية النقديّة الّتي يقوم بها النّاقد على هـذا النّحو عمليّةُ حديثٍ مزدوجٍ ، يتحدّث فيها النّاقدُ أوّلا مع الأديب من خلال عمله أو حولَه ، و يتحدّث فيها النّاقد ثانيا عن الأديب إلى القرّاء ، و بين هذا الحديث "مع" و الحديث "إلى" تتحرّك العمليّةُ النقديّةُ »[3]، و لعلّ في حديث النّاقـد مـع الأديب ما يفتح بدايةَ الأزمة ، و لا يفهم من هذا تلك العلاقةُ المتوترةُ بينهما بسبب فرطِ الحساسيّةِ بالتّعالي أو الدّونيّـة ، فكثيرا ما« يُعاب على النّقد أنّه يريد أنْ يذهب إلى ما هو أبعدُ من الاستمتاع الخالص بالقراءة ، ألا تكفي قراءة عمل و الاستمتاع به ؟ لماذا يحتاجون إلى النّاقد الحسود القاسي ؟ ذلك كما لو قلنا : لماذا يحتاجون إلى الفلسفة ألا يكفي استخدام الأشياء علميّا ؟ »[4] . ليس هذا القصد من كون بداية الأزمة النقدية في حديث الناقد مع الأديب ، إنما القصد هو تماهي الرّوح النّقديّة عنده مع الرّوح الشّاعرة .

بين النّاقد و الشّاعر :النّاقد شاعرًا :

- ليس القصد بالحث في هذه القضيّةِ تحديدُ ملامح وظيفة النّاقد أو الشّاعر و بالتّأكيد لن يكون أيضا إثبـات أن« النّاقدَ شاعرٌ فاشلٌ »[5]،على الرّغم مما تثيره عبارةُ « النقدُ نشاط العاجزين : ينقد من لا يستطيع أن يبدع »[6]من رغبة ملحة في بحث الإبداع عند النقاد ، إلاّ أنّ الأمر لن يفيدَ المقصد الأصلي في الكشف عن علاقة النّاقد بالمشـهد النقـديّ الصّاخب . إنّ القصد هو الكشف عن شعرية النّاقد علّها تكون العنصرَ المحرّكَ لقناعاته بمنهج من المناهج أو العـدول عنه لصالح آخرَ .

من المؤكد أنّ « التّجربة لا تُدرَكُ بل تُعاشُ ، فإذا كان الشّخص الّذي يعيشها لا يملك أن يقدّمها لغيره مفصّلةً و واضحةً و كاملةً ، فإنّ غيره سيكون أعجزَ منه، فما على الباحث إذن في تجربة الإبداع الشّـعريّ إلاّ أن يحـاول لـمَّ الشّتات المتناثر الّذي يحاول أن يقدّم به الشّعراء رحلتهم في الإبداع لعلّه يستطيع أن يؤلّف من هذا الشّتات كيانا بملامـحَ قريبةٍ من الوضوح »[7]، و لكن مع هذا كلِّه أليس ممكنا أن يكون النّاقد – و ليس أيّ ناقد- يعيش التّجربةَ الشّعريّة هو أيضا أو بعضَها بطريقة ما ولا يطلب إدراكَها فقط ، فإذا كان النّاقد المهتمّ بالإبداع الأدبيّ و الّذي لم يكسبه اهتمامُه بعدُ صفةَ النّاقدِ الحصيفِ يتمكّن إلى حدٍّ بعيدٍ و من خلال تجربته القرائيّة أن يكوّن ملامحَ – و إن باهتةً- عن بعـض مـا يمرّ به الشّاعر من ألم أو فرح أو غضب أو غير ذلك... أفلا يكون النّاقد أهلاً لأنْ يفهم تلك التجربةَ و يعيَها بل و يحسَّ بها ، إنّه و بعدَ قراءته النّصَ الأدبيَّ سينفعل به و يتفاعل معه و« أعني الانفعالَ الّذي يحوّل تجربة الشّاعر إلى تجربة النّاقد فيسقطُ الثانيةَ على الأولى بنفس القدر الذي ينفي فيه التجربةَ الأولى »[8]. إنّ العمل بعد هذا الانفعال أصـبح ملكـا للنّاقد ، حيث تُرفع سلطة مؤلّفه عنه ، و لسنا هنا بصدد التّلميح إلى قضيّة موت المؤلّف ، لأنّ ناقدنا يحتاج إلـى هـذا المؤلّف« ليشترك كلاهما في نجوى واحدةٍ مريحةٍ فلا ينطق فيها سوى صوت واحد »[9]، هو صـوت التّجربـة الّتـي انتقلت من النّاقد إلى المبدع ، بعد طول مراس ، إذ ما كلّ ناقد يتمكّن من صهر تجربة المبدع في نفسه ، وما كلّ مبدع قادر على تمثل هذه التّجربة حقّ تمثّلٍ ، ذلك أنّ « البحثَ النقديَّ في عمل أو مؤلَّف ليس تأملا عاما في صيغ جماليـة تجريديّة ، و إنّما في وظيفة ، و حينما نقرأ فإنّنا نعيش تجربةَ القيمِ الّتي تجسّمت في الصّفحة و أمّا تقنينُ القيمِ بعيدا عن هذه التجربة فلا ... و من تجربة إلى تجربة يمضي النّاقد محكمًا إحساسَه و ... ثقافته و وضوحه في المقارنة و التمييز و نظرتَه إلى القيم و كفاءتَه في صوغ الأحكام و التّدليل عليها »[10]، إنّ انفعال الناقد مع ما يقرأ يتهذّبُ في كل قـراءة أكثرَ فأكثرَ و يتعمّق إحساسه به مع كلّ تجربة نقديّة يخوضها و هو في خضمّ ذلك كلّه إنّما يشـحذ أدواتـه و يشـحن فعاليّتها ، لأنّه من غير المجدي أن يُلقّن النّقدَ ثمّ يحاولَ تطبيقَه دون أن يتجاوز تلك الفجوة العميقة بين ما هو أدبيّ و ما هو نقديّ ، و« لابدّ لبديهيّات النّقد و فرضيّاته أن تنبع من الفنّ الذي يتناوله ، و أوّل ما على النّاقد الأدبيّ أن يفعله هو

أن يقرأ الأدب و أن يقوم باستعراض استقرائيّ لحقله ، و أنْ يجعل مبادئَه النقديّة تتشكل من معرفتـه بـذلك الحقـل ، فالمبادئ النقديّة لا يمكن أخذها جاهزةً من اللاّهوت أو الفلسفة أو السياسة أو أيّ مزاوجة بين هذه الحقول »[11]و بالقـدر نفسِه لا يمكن لمبادئ النّقد و آلياتِه الإجرائيّةِ أن تُلقَن لمشروعِ ناقدٍ ليصبح ناقدا من غير أن يتذوّق و يحسّ و هو يقـرأ ،« و إذا كان النّقد علما في بعض وجوهه فهو أيضا يعدّ كما يقول "سنت بيف" " فنّا يتطلّب فنّانا ماهرا" ، و الشّـعر لا يمكن أن يتذوّقه إلاّ شاعر ، و عمليّة النّاقد في إعادة البناء تحمله إلى المنطقة الّتي اكتشفها الفنّان في الأصـل »[12]. إنّ كلّ المبادئ النّقديّة لأيّ منهج و مهما تكن أدواتُه الإجرائيّةُ لا تصنع ناقدا ناجحا و لا حتّى فاشلا ، تماما كمـا أنّ كـلّ لغات العالم بما هي قادرة على تجاوز الحقيقة إلى الخيال لا تصنع أديبا .

لقد بات واضحا أن هناك شيئا آخر في ذات النّاقد تجعله كذلك ، ربما هي تلـك الـذّات عينُهـا بخصوصـيتها الإنسانيّة الشّاعرة ،« فالنّاقد الّذي يسكن الشّعر داخله بقوة لا يجعل نفسه في الحاضر و لا الماضي ولا حتّى المسـتقبل ، بل يجعل نفسه مركزَ الرؤيا الّذي يحرّك في الناس الزمنَ بأبعاده الثّلاثة ليضعهم في مستوى الدّهشة الّتي تقـود إلـى الحركة أو الفعل ، فيلامس قضاياهم المستجدّة ، و يعبّر عن رؤاهم الّتي لن تتحوّل إلى خطاب نقديّ ، و كأنّه يقول مـا يتلاقى و رؤية القارئ أو يجد داخله مكانا فسيحا ... بهذا يخرج النّاقد من حيّز التخصّص الأكاديميّ المحدود إلى الحياة بأوسع أبوابها و إن بقي منجذبا إلى هذا التخصص بفعل وظيفته ناقدا »[13] .و النّاقد الّـذي يسـكن الشّـعر داخلَـه يستحيل أن يلتزم صرامةَ المنهج العلميّ ، هذا طبعا إذا سلّمنا مع من يجعل النّقد علما أنّه يمكـن الإحاطـة بالظّـاهرة الأدبيّة باعتماد منهج واحد – على أنّ هذا التّسليم سيفتح أمامنا بابا آخر على« أزمة المنهج الذي يقـوم علـى عمليّـة تأطير النّصّ ، و هي أزمةُ منهجٍ يكون مدفوعا بوهم الموضوعيّة الّتي تخفي شخصيّة النصّ ، بإدخاله في قوالب و أطر جاهزة يقاس عليها ، و وهم الموضوعيّة هو وهم من أوهام النّزعـة العلميّـة ، أو علـى الأدقّ النّزعـة التعالميّـة Scientism في العلوم الإنسانيّة الّتي تريد أن تحتذي نموذج العلم الطبيعيّ في حين أنّ العلم الطبيعي نفسَه قد تخلّى عن نموذجه التقليديّ الّذي يتوخّى الموضوعيّة المطلقة و اليقينَ »[14]، و مهما يكن من أمِر هذه الموضوعيّة المتوهَّمة ، فإنّ النّاقد بكلّ ذلك التعالق الروحي ، الذي أثبتناه مع المبدع ، لا يملك إلا أن يكون زئبقيا ، بل إنّي أقـول إنّ الموضـوعيّة الحقيقية التي يجب على الناقد تقصّيها هي اللاموضوعية ، و أمّا غير ذلك فهو عبث و ذرّ رماد في عيون القارئ ، و تعصّب مضلّل ، يتبرّأ منه النّاقد الحقّ و يعتبره حِجرا على الفكر ،« ذلك لأنّ الحِجر على الفكر البشريّ لا يمكـن إلاّ أن يقتله ، و اتّجاهات الفكر السّليمة هي دائما تلك التي تخطّط لها تضاريس الحياة و لا يمكن لأيّ ناقد مهما كانت قوّته أن يقاوم تلك التيّاراتِ النّابعةَ عن الحياة الجارية و موقف تضاريسها و إلاّ كان كمن يحاول أن يحمل الأفكار علـى أن تصعد الرّبوات »[15] . إنّ انزياح النّاقد إذن في ممارسته النّقديّة تتحكّم فيه طبيعة ذاته الشّاعرة ، بغـضّ النّظـر عـن جدوى المنهج أو قصوره ، إنّها ذاته المعجونة بروح الشّعر ، فهو و إنْ لم يقل الشّعر يوما إلاّ أنّ "ربّته" قد رفلت أمامه أو أنّ شيطانا من "واد عبقر" قد حمل إليه من بعض نسائمه ، أو أنّه « يعرف قلب الغير و يتأمل تنوّع النّاس ، و يقصّ من نسيج فلسفته نفسها مستوى إنسانيًّا لكي يفصّل على مقاسه العمل الذي بصدد تمييزه »[16]، و الرّوح الشّاعرة عنـد النّاقد تقنع بجدواها و حضورها أكثر حين تصل حميميّة العلاقة بينه و بين القصيدة أن يفهم منها ما لم يفهمه قائلها ، و في هذا الصّدد« يحكي سقراط في دفاعه أنّه ليقيس حكمته ذاتها ذهب ليتحدّث مع الشّعراء ، يقول فأظهرت لهم الفقراتِ الأكثرَ اتقانا في كتاباتهم نفسِها و سألتهم عن معناها واثقا أنّهم سوف يعلّمونني شيئا ، أتريدون أنْ تثقوا فـيَّ ؟ خجلـت من قولي ، لكنّي أعتقد أنّ أيّ أحد منّا يستطيع أن يشرح هذه القصائد بأفضل ممّا يستطيعه مؤلّفوهـا أنفسُـهم ، حينئـذ لاحظت أنّ الشّعراء يكتبون شعرهم بإلهام عبقريّ و ليس بإحساس عالمٍ »[17]، و لربّما كان هذا الإحساس العالم متوفر عند النّاقد إلى الدّرجة الّتي تجعله يعي من النّصّ – شعرا كان أو نثرا – مالا يعيه الشّاعر أو لربّما وعاه و عبّر عنه ،و لأدلّ على ذلك قصّة أبي نوّاس حين« مرّ بأستاذ يشرح لطلبته مطلع قصيدته الشّهيرة : ألا فاسقني خمرا ... وقل لـي

هي الخمر ، وقال الأستاذ إنّ الشّاعر أبصر الخمر فانتشت حاسّة التّبصّر وشمّها فانتشت حاسّة الشّمّ وتـذوّقها فانتشت حاسّة الذّوق ولمسها فانتشت حاسّة اللّمس وبهذا بقيت حاسّة السّمع محرومةً من النّشوة فقال الشّاعر "وقـل لـي هـي الخمر"، وبهذا القول انضمّت حاسّة السّمع إلى بقيّة الحواسّ المنتشية ، وتقول الرّواية إنّ أبا نوّاس ـــــــ منتشيا بهـذا التفسير ـــــــ دخل على ناقدنا فقبّل يده و رأسه وقال له : بأبي أنت و أمي فهمتَ من شعري ما لم أفهم[18] ».

إنّ الحسّ الشّعريّ عند النّاقد قد فرضته شعرية النص الأدبي التي تفرض التعـددَ و الانفتـاح بحكـم طبيعتـه المستقطبة خطاباتٍ أخرى ، إضافة إلى كونه خطابا أدبيا من حيث هو رؤيا للحياة بما فيها من تعدّد و اخـتلاف ، و إنّ الإحاطة بهذه الرّؤيا الناضجةِ تحتاج إلى روح ناقدة ليس النقدُ عندها مجرد مبادئ توقّعُها أدواتٌ إجرائية و تؤيّدها مقولةٌ ناجزةٌ سلفا و يجب الوفاء لها ، و هي ليست أيضا« مجرّد رأي فحسب ، إلاّ إذا أردنا أن نسمّيَ الآراءَ الذاتيّـةَ أيضـا أحكاما فلسفيّةً ، و على النّاقد لكي يمسك بقيمة ما أن يتابعها في غابة طنانة فيتدخل في كلّ جملة مقروءة ثم قليلا بكـل إمكاناته و بكلّ معارفه يحسّ و يدرك و يتلطف و يقارن و يتذكر و يعرف و يتذوق و يفكر و يحلل ، و تركيب كل هذا التطور من الالتقاط بجملة إلى الحكم و مهما كانت روايتنا عن هذه العملية النقدية تفصيلية لا نستطيع أن نظهرها أبدا و لا يستطيع الشاعر أيضا أن يظهر تطورَ إبداعه »[19].

إنّ العملية النقدية ليست أبدا تقنية و لا يمكن لها تكون كذلك ، لأنّها دراسة لا تفـرض علـى مادتهـا آلياتهـا الإجرائية ، إنما تفرضها عليها مادتها بسبب طبيعتها من جهة و بسبب روح الدّارس (النّاقد) و علاقته بهذه المادة مـن جهة أخرى ، أي إنّ العملية النقدية تتمّ بالجدوى المرجوةِ إذا فقط إذا التقى الحسّ الفنيّ الباعث على الإبـداع و التعبيـر مع الكفاءة في الدراسة ،« و دون شك فإن حركتيْ الرّوح هاتين التعبير و الدراسة يلتقيان في الشخص الواحد، في كـلّ شاعر يقبع ناقد يساعده على أن يعنى ببناء قصيدته ، و في الوقت نفسه يوجد في أعماق كلّ ناقد شـاعر يعلّمـه مـن الدّاخل كيف يتعاطف مع ما يقرأ ، و لهذا تكثر في تاريخ الشّعر حالاتُ الشّعراء الذين تركوا لنا نقدا ذاتيّا مضيئا و تكثر في تاريخ النقد أيضا حالات النقاد الذين بدل أن يحلّلوا موضوعيا عملا ليس لهم بدؤوا يظهرون قصائدهم »[20] .

لغة الخطاب النقدي والذات الناقدة الشاعرة :

لقد بات مسلّمًا أنّ الأدبَ مرآةٌ ويفترض أنه بات مسلما أيضا أن النقدَ مرآةٌ ، إنّها كما يسمّيها الـدّكتور "جـابر عصفور" مرايا متجاورة ، و« قد تتميّز مرآة النقد الأدبيّ بتعدّد الجوانب التي تعكسها خصوصا عندما تضـمّ الصـور المرتسمة على صفحاتها نفسية الناقد إلى نفسية الأديب و القارئ ، و لكنّ هذا التّميّزَ نفسَه يؤكّد الطبيعة الأدبيـة للنقـد الأدبي ، فيؤكد اعتمادَ الناقد على انفعالات مماثلة لانفعالات الأديب ، و قد يلحق عمل الناقد عملَ الأديب أو يعقبُه فـي الزّمان لأنّ الناقد لا يكتب إلاّ عن أعمال أدبية موجودة سلفا ، و لكن العملية الوجدانية التي تحـرك كـلاًّ مـن النّاقـد والأديب تشكل أساسا ثابتا لـــعملية واحدة في جوهـرها مختلفة في مظهرها »[21] .

إنّ الحديثَ عن التّلازم الرّوحي بين الناقد و المبدع يستحضرُ إلى الذّهن العشراتِ من النّماذج و الأسـماء فـي نقدنا العربي الحديث و المعاصر ، فأمّا النّتاجُ الأدبي لهؤلاء فليس موضوعَ هذا الطّرح ، و أمّا نتاجهم النقـدي فنجـده موسوما بالانفتاح على المناهج النقدية و ممارستهم النقدية تبدو أكثرَ مرونةً ، و أقلَّ ولاءً و تعصبًا لمنهج بعينه ، فهذا طه حسين في كتابه " في الأدب الجاهلي " قد انتقد الاعتماد على الرّؤية الأحادية مشيدا بالموسوعية عند الناقد الغربي ، حتى إن لغته النقديةَ لا تتسم بالصرامة العلمية التي يفـترض أن تكون عليها لغة النقد ، بل إنها تعكس حميميّـة مـع النصِ موضوعِ الدراسة ، و« علينا أن نلاحظ أنّ (أنا الناقد) قد صارت تعاني نفس المعضلة التي تعانيها (أنا المبـدع) الرومانسي ، أعني إن كلتيهما تحاول أن تجسّد ما لا سبيل إلى تجسيده كما أن كلتيهما تشكو من هذه الأداة العـاجزة و هي اللغةُ ، و ما أقرب الأنا الناقدة من هذه الزاوية فحسبْ من الأنا الشاعرة التي كانت تحلم عند كولوريـدج بتحطـيم

التناقض بين الكلمات و الأشياء لترفع الكلمة إلى مستوى الأشياء الحية بوجه خاص ،و ما أقرب الأنا الناقدة من هذه الزاوية فحسبْ من الأنا الشاعرة التي كانت تتوجع عند لامارتين من عجز اللغة في التعبير عن انفعالاتها ... و من السهل عندئذ أن تتبادل الأنا الناقدة الصفاتِ مع الأنا الشاعرة لتحلّ الأولى في خطاب الحديث الأدبي و تحلّ الثانيةُ في خطاب الحديث النقدي ، فيؤكد طه حسين الناقدُ أن اللغة لم تخلق لتعبر عن الفن أو أن بينها و بين ذلك بونا بعيدا ، كما ينطق طه حسين الأديبُ الراوي ليعبّر عمّا يجده الأبطال في وصف ما يحسّون و ما يشعرون »[22] ، و اللغة الانفعالية في دراسات ناقد (كطه حسين) دليل البعد العاطفي، « إن غلبة الوظيفة الانفعالية على الخطاب النقدي إنما هي غلبة تكشف عن المحتوى العاطفي الذي تنطوي عليه لحظات الحديث النقدي مع العمل الأدبي أو عنه »[23]، و إذا ثبت عند الناقد هذا الانفعال العاطفي مع مادته ، فهو بذلك ضرب من التعجيز أن نطالبه بالالتزام بالصرامة إزاء منهج معين ، و هذا يثبت أن الناقد بفرض طبيعة روحه النقدية لابد أن ينزاح من منهج لآخر في نقده للعمل الواحد أو لعدة أعمال . فكثيرا ما آمن طه حسين بسبب الانفعالات النفسية لدى الناقد« بعدم جدوى الالتزام بمبادئ صارمة لدراسة الأعمال الأدبية و ضرورة الاستجابة إلى الهزّة التي تحدثها صياغة العمل في الناقد »[24]

و لعلّ نموذجا آخر سيدافع أكثر عن كون اختلاط روح الإبداع و دراسة الإبداع أمرٌ لا مناص منه ومؤثرا على اللغة النقدية للناقد، و هو "أدونيس" الذي يأتي اسمه في قائمة النقاد الأدباء و الأدباء النقاد ،« و لكن أدونيس في ثقافتنا العربية المعاصرة تميز بكثرة إنتاجه الشعري و النقدي و نوعيته و استمراريته (...) و في كل ما يكتبه لا يكفّ عن إعلان انتمائه الفلسفي إلى تيّار الحداثة (...) بغير التزام منه بمنهج محدد بل إنه يعلن رفضه للمنهج و الأطر المحددة سلفًا ، إنه أشبه ما يكون بالباحث السفسطائي عن الحقيقة ، و تصوره النقدي زئبقي كثير المتغيرات يرفض الثبات »[25]، لأنه و ببساطة نابع من روحه المبدعة التي تعي الخبرة الجمالية لديه و تقوى على وصفها أو إخضاعها لمعاييرَ نقديةٍ إخضاعًا يراعي أوّلَ ما يراعي الخبرةَ الجمالية لدى المبدع و المتبلورة في النص الأدبي ، لذا يبدو تصورُه النقديُّ زئبقيا ، و هو في الحقيقة تصور مشروع لأننا سبق و سلمنا عشرات المرات أن طبيعة المادة الأدبية موضوع النقد زئبقية هي الأخرى ، فلا عجب أن تتمنع و تتفلت فيعجز المنهج النقدي عن الوفاء لجوهرها .

ما من سبيل إذن والحال هذا إلى ربط المشهد النقدي الثوري بقصور المنهج وعجزه عن الوفاء لمقولاته في استيعاب النص ، فهو وإن عُدّ سببا مهما إلا أنه ليس الأهم كما أنه ليس الوحيد . إن النقد ليس تقنية يتعلّمُها الناقد ، والاطلاعُ على المبادئ النقديةِ والأدوات الإجرائيّة لمنهج ما لا يعني بالضرورة التمكن من العملية النقدية وفقه ،و إلاّ لكنّا كلُّنا ناقدين ،ولعل ما تعانيه اللغة النقدية من عجز في التعبير عمّا يريد الناقد بدقة دليل ذلك ، ولا يصرّح بذلك إلاّ الناقدَ الذي تعالقتْ في ذاته روح النقد مع روح الأدب ، فاستحال عنده الالتزام بمنهج واحد في النقد .. إنّ الناقد محتاج أنْ يعيش المخاضَ تماما كما عاشه الأديب لتبدأ حياةُ النص معه.

المراجـــع :

[1] نعيم اليافي : المغامرة النقدية ، مجلة المعرفة ،347، أغسطس 1992 ، ص 102 .

[2] نعيم اليافي : المغامرة النقدية ، مجلة المعرفة ،347 ص 105 .

[3] جابر عصفور المرايا المتجاور.دراسة في نقد طه حسين . الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1983.ص 418

[4] مناهج النقد الأدبي:.ترجمة الطاهر أحمد مكي.مكتبة الآداب.القاهرة . 1991. ص 38

[5] عبد الله العشي .أسئلة الشعرية : منشورات الاختلاف. "الجزائر. ط 1. 2009 ، ص 11

[6] مناهج النقد الأدبي : ص39

[7] أسئلة الشعرية : عبد الله العشي ، ص 21 .

[8] المرايا المتجاورة : ص 434

9 المرايا المتجاورة : ص 419

10 مناهج النقد الأدبي : ص 232

11 نورثروب فراي . تشريح النقد. ترجمة محمد عصفور . منشورات الجامعة الأردنية : ص 07 .

12 المرايا المتجاورة .ص 33

13 ابراهيم أحمد ملحم. النقد التكاملي ،عالم الكتب الحديث.ط1. 2014. ص 56

14 سعيد توفيق .في ماهية اللغة و فلسفة التأويل المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع . ط1 .2002. ص 120-121

15 محمد مندور . معارك أدبية . مطبعة نهضة مصر : ص 08 .

16 مناهج النقد الأدبي ، ص 226

17 مناهج النقد الأدبي ، ص 43 .

18 عبد الله الغذامي : تأنيث القصيدة و القارئ المختلف ، المركز الثقافي العربي ، ط2 2005 ، ص 132

19 مناهج النقد الأدبي ، ص 229

20 مناهج النقد الأدبي ، ص 03 .

21 المرايا المتجاورة ، ص 294

22 المرايا المتجاورة ، ص 471

23 المرايا المتجاورة ، ص 303

24 المرايا المتجارة ص 445

25 سفيان زدادقة : أدونيس الشاعر الناقد : الحوار المتمدن2650. 18. 05 . 2009 .